

دراسة تحليلية نقدية لكتاب الأعلام للأستاذ خير الدين الزركلي

محمد مدثر عالم

الباحث في الدكتوراه، قسم اللغة العربية، جامعة مولانا آزاد الوطنية الأردنية
حيدرآباد – تلنغانا، الهند

500032

Email - mudassir.jnu@gmail.com

ملخص البحث:

إن الأمم الواعية هي التي تعرف أعلامها، وتحفظ آثارها اعترافاً بمساعيهم المحمودة أولاً، ولتنسج أجيال القادمة على منوالها ثانياً، وقد بلغت الأمة المسلمة في هذا الجانب مبلغاً لم تسبق إليه، فمذ فجر تاريخنا لقد أنجبت الأمة المسلمة رجالاً اهتموا بتدوين الموسوعات وتفننوا فيها تفنناً، فمنهم من دونوا الموسوعات التي تقتصر على الطبقات كطبقات ابن سعد، ومنهم من أفردواها بتراجم الوفيات لابن رافع، ومنهم من أرخوا للبارزين في بلد من البلدان كتاريخ دمشق لابن عساکر، أو عصر من العصور وما إلى ذلك.

يقول د/ أحمد درويش في مقدمة كتاب "فن التراجم والسير": (1)

"يرقى فن التراجم في الآداب العالمية إلى مرحلة مبكرة من تاريخ البشرية، لعلم من أقدمها ما دونه قدماء المصريين على أحجار المعابد والمقابر والأهرامات من تراجم لعظماء الحكام والقواد، وكذلك فعل الآشوريون والبابليون في التاريخ القديم، فكانت بصمة الإنسان على الحجر، في ذلك الوقت المبكر، محاولة للتعلق بإحدى صفحات الخلود أمام القسوة البالغة التي كان يراها لأصابع الفناء وهي تمحو كل شئ أمامها، كما كانت، وكذلك، محاولة لتأطير الوجود المحدد للإنسان أمام الأزلية المطلقة للوجود الذي تراءى له، بحراً واسعاً مترامياً الأطراف، إن كانت هناك أطراف" [1]

ف نظراً لأهمية الموضوع، وشهرة كتاب الأعلام إلى حد أنه سرق بريق الأعمال الأخرى للأستاذ المؤرخ الزركلي (2)، والتقدير والقبول الذي كسبه لدى الباحثين والمؤرخين في عصرنا الحاضر، حاولنا دراسة "الأعلام" دراسة تحليلية نقدية، فقسمنا الدراسة إلى ثلاثة مباحث، فالمبحث الأول سيتناول التعريف بالكتاب، يذيل عليه سبب التأليف والمنهج المتخذ فيه، وسيشتمل المبحث الثاني على ميزات الكتاب وخصائصه، وملاحظات نقدية واعية، وأما المبحث الثالث الأخير فيشتمل على التعريف الموجز المختصر بالكتب الستة المتعلقة بكتاب الأعلام من ذيول واستدراك.

الكلمات المفتاحية: التراجم، كتاب الأعلام، فن التراجم، خير الدين الزركلي، الموسوعات، النقد والتحليل.

المبحث الأول: التعريف بالكتاب، سبب التأليف والمنهج المتخذ فيه

أولاً: التعريف بالكتاب

ولامراء في أن كتاب الأعلام من أعظم الكتب للتراجم، التي ظهرت في القرن الماضي، فقد أورد فيه الأستاذ خير الدين الزركلي تراجم لنحو 13435 علماً من القديم والجديد، معتمداً على ما يزيد عن ألف وبضع مئات من المصادر والمراجع المطبوعة والمخطوطة، فظهرت طبعته الأولى عن المطبعة العربية بالقاهرة عام 1927-28م، ثم ظهرت طبعته الرابعة بعد وفاة الزركلي عام 1967م عن دار العلم للملايين، بيروت، كما صدرت طبعته الخامسة عشر عن المطبعة المذكورة أعلاه سنة 2002م، وهي التي اعتمدت عليها في دراستي عن الكتاب "الأعلام".

فجاء الكتاب في ثمانية مجلدات، ويضم 2741 صفحة من القطع الكبير، بدأ الزركلي العمل في "الأعلام" عام 1912م حتى وفاته، ولم ينفذ يده منه طيلة ستين عاماً، وهو قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ويعتبر أحد الموسوعات العلمية الهامة في هذا العصر، ويتمتع بأهمية المرجع الأول للباحثين عن التراجم، ولاسيما لأصحاب الدراسات العلمية والبحوث الجامعية.

يقول الدكتور نزار أبابطة ومحمد رياض المالح (3) في مقدمة كتاب "إتمام الأعلام: ذيل لكتاب الأعلام لخير الدين الزركلي" وهما مصنفان للكتاب المذكور سابقاً:

"فلا يخفى على الباحث الجاد ما لكتاب الأعلام لخير الدين الزركلي من أهمية خاصة يتبوأها بين كتب المراجع والمصادر الأساسية، وكذلك بين كتب التراجم والرجال، وقلما تخلو خزانة كتب من نسخة منه، ذلك لأنه من كتب المفاتيح في أخبار الأعلام العرب والمستعربين من الرجال والنساء، وفيه جريدة بأعمالهم المتنوعة، من كتب حقوقها وألفوها، وصحف ومجلات أصدرها، وفيه سير حياتهم، وفيه غير ذلك مما يتصل بهم، قضى صاحبه في تأليف نحو من أربعين سنة، حتى استطاع أن يجمع مشاهير القرون منذ العصر الجاهلي إلى وفاته" [2]

ومن الموسوعات المتخصصة ، توجد موسوعات نادرة تتضمن جميع اختصاصات وصفات مذكورة أعلاه، ولعله في الطليعة منها " الأعلام" قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين(4).

" كتاب الأعلام لأستاذنا أبي العيث خير الدين الزركلي أوفى كتاب حديث في التراجم فيما أعلم، فهو عصاره فكر باحثه جليل قل أن يضاهيه أحد في سعة إطلاعه على المؤلفات قديمها وحديثها، وهو خلاصة مئات من الكتب والمطبوعات ألّفت في التراجم، بحيث يصح القول بأن الأعلام من مفاخر عصرنا الثقافي" [3]

ثانياً: سبب تأليف الكتاب

بين الزركلي السبب الذي دفعه على تأليف " الأعلام " في مقدمة الطبعة الأولى، فيقول:
"..... في الخزانة العربية فراغ، وفي أنفس قرائها حاجة، وللعصر اقتضاء، يعوز الخزانة العربية كتاب يضم شتات ما فيها من كتب التراجم، مخطوطها ومطبوعها، قديمها وحديثها، ويقتضي العصر الذي نعيش فيه أن يكون لنا كتاب يجتري بها المعجل منها عن مطولات السير ووضخام أسفارها" [4]

ثالثاً: المنهج المتخذ في تراجم الأعلام وأسس انتقائها

(1) العلمية:

يشتمل كتاب الأعلام على التراجم من العصر الجاهلي حتى قبل وفاة المؤلف عام 1967م، ويحتوي على تراجم العلماء المسلمين البارزين في شتى مجالات وفنون، كما يحتوي على تراجم العديد من العلماء المستشرقين والمستعربين(5)، وبعض مشايخ الشيعة، وأصحاب الفرق المنحرفة في كل عصر على اختلاف مذاهبهم وانتماءاتهم.

وأما أسس الانتقاء والاختيار فقد صرح الزركلي في مقدمة الطبعة الأولى فقال في ص 20: "وجعلت ميزان الاختيار أن يكون لصاحب الترجمة علم تشهد به تصانيفه، أو خلافة، أو ملك أو إمارة، أو منصب رفيع-كوزارة أو قضاء- كان له فيه أثر بارز، أو رئاسة مذهب أو من تميز به، أو أثر في العمران يذكر له، أو شعر، أو مكان يتردد به اسمه، أو رواية كثيرة، أو أن يكون أصل نسب، أو مضرب مثل، وضابط ذلك كله: أن يكون من يتردد ذكرهم ويسأل عنهم" [5]

من الملاحظ أنه بناء على هذه الشروط المذكورة أعلاه في مقدمة الطبعة الأولى من الكتاب تنطبق الشروط أيضاً على سلاطين الدولة العثمانية، لكن الأستاذ الزركلي لم يهتم بترجماتهم، ولم يورد أية كلمة حول حياتهم.

فمن البدو أن خير الدين الزركلي كان رجلاً وطنياً، متأثراً بنزعة القومية العربية، وكان سلاطين الدولة العثمانية من الأتراك، اللذين تسلطوا عليه بالأذى، وأصدروا الحكم بمصادرة مجلته " الأصمعي" التي أنشأها في دمشق، بسبب صورة رمزية كتب أنها صورة الخليفة العربي "المأمون" [6]

(2) الشمول النوعي:

لم يحدد الزركلي تراجمه على نوع معين من الأعلام، بل شملت تراجمه الملوك، الخلفاء، والقضاة، والمفسرين، والمحدثين والأئمة(6) وغيرهم من التابعين في مجالات شتى، وفنون متعددة على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم.

(3) الشمول المكاني:

اهتم الزركلي بأن يكون كتابه مشتملاً على الأعلام من مختلف أقطار العالم، فلم يقصر جهوده على مجرد تراجم الأعلام المنتمين إلى الوطن العربي أو الإسلامي، فتضمن كتابه تراجم المستشرقين والمستعربين وأدباء العرب في المهجر.

(4) الشمول الزمني:

جمع الزركلي في كتابه التراجم من العصر الجاهلي حتى وفاته سنة 1976م، فلم يترجم للأنبيا الذين ذكر اسمهم في القرآن الكريم، ولم يترجم إلا للأنبيا محمد، شعيب، أيوب، هود، واسماعيل، وصالح عليهم السلام [7]

ومن اللافت أن خير الدين الزركلي أكثر من ترجمة الذين عاصرهم، ولعل السبب وراء ذلك أن تقلده مناصب حكومية مختلفة، وتنقله بين مصر وفلسطين، والحجاز، والأردن، والشام ساعده في توسيع علاقاته بهؤلاء الأعلام الذين عاصروه ومنها: محمد كرد علي، والمختار السوسي، والبشير الأبراهيمي، والملك عبدالعزيز، والحسين بن علي (الشريف الملك) [8]

التراجم بين الإنصاف والتحامل:

عندما نجيل نظراتنا في تراجم الأعلام نجد أن الزركلي كان بين الإنصاف والتحامل في عمل الترجمة، لا بد من مؤرخي السير والتراجم أن يتجرد عن الهوى والتحامل وإلا لا يمكن له أن ينصف في عمله، ويأتي عمله مزيجاً من عنصره الذاتي المتحامل.

"ومن الصعب على المترجم المنصف النزيه أن يجرد نفسه تماماً عن عوامل التحيز، والتجرد والهوى، وهي آفة المرأ دائماً فيما يأتي أويدع، وما في الأعلام من الأخذ القليلة رقية من عين الحسد للكمال، ومحاسن الأعلام جمة وبعض المآخذ لا يضر" [9]

وقد وجد الزركلي مصنفاً وممارساً عمل الحياد في أغلب تراجمه إلا في تراجم قليلة لبعض المعاصرين، كترجمة الملك عبدالله بن الحسين 82/4، فهو لم يضيع فرصة إلا اهتبلها في إيراد بعض الكلمات المتحاملة المسيئة له، كما يوجد ذلك في ترجمة رشيد طليع 24/3، وعادل أرسلان 343/3، وعودة أبي تايه 95/5، وفؤاد الخطيب 160/5، وفؤاد سليم 162/5، وغيرهم من الأعلام.

ويلاحظ أن المترجم إذا كان معاصراً للزركلي فغالبا ما يقوم رأيه على اتصاله به وقربه منه، ومعاصرته للأحداث التي شارك فيها المترجم.

التراجم بين المدح والذم:

وفي أثناء الدراسة لكتاب الأعلام، توجد تراجم كثيرة أعقد المدح على أصحابها، كقوله في ترجمة ابن عمارة 6/5 و"كان عاقلا حسن السيرة"، وكذلك قوله في ترجمة فوزان السابق 162/5 و"وكان من التقى والصدق والدعة وحسن التصرف في الأمور والتفهم لها على جانب عظيم" كما توجد فيه أيضا بعض التراجم التي هدف إليها بالذم والإساءة كقوله في ترجمة حسني الزعيم 329/2 و"كانت في الزعيم شدة، وحدة، يخالطهما استهتار وعبث، وينقصه كثير من عفة اللسان اذا مزح أو سخط".

ومن اللافت أن الزركلي يجمع بين المدح والذم في ترجمة واحدة كقوله في ترجمة ناصر بن فابتاي 9/7 نقلًا عن ابن إياس "كان يوصف بالكرم الزائد والشجاعة لكنه كان جاهلا عسوفًا سفاكًا للدماء، سيئ التدبير، كثير العسر للأوباش".

ثالثًا: ترتيب الكتاب

أما ترتيب كتاب الأعلام، فالأستاذ الزركلي لم ينتهج فيه نهجا خاصا ولم يتقلد فيه تقاليد الكتاب الآخرين الذين كتبوا في هذا المجال، فعلى سبيل المثال جمع العلامة عبد الحي الحسني الندوي أحوال الشعراء، والأدباء، والكتاب، والأمراء، والحكام، والفقهاء، والمحدثين، والمفسرين، والزعماء، والقادة الهنود من القرن الإسلامي الأول حتى وفاتهم، وقام بتبويب الكتاب على القرون وأورد فيه التراجم على أساس الحروف الأبجدية، حيث بدأ الجزء الأول بعنوان في "أعيان الهند من القرن الأول إلى القرن السابع"، ثم الجزء الثاني بعنوان في "أعيان الهند في القرن الثامن الهجري" حتى يمتد الكتاب إلى الجزء الثامن ويبدأ بعنوان في "أعيان القرن الرابع عشر للهجرة".

فاتى الأستاذ الزركلي بتراجم الأعلام على أساس رسم الحروف بصرف النظر عن المكان والزمان، ولم تقتصر تراجمه لبلد معين، وقطر معين، ومذهب أو مسلك خاص، بل تستوعب أشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين استيعابا وافيا أينما كانوا.

يقول الأستاذ الزركلي عن ترتيب الكتاب في مقدمة الطبعة الأولى للجزء الأول من كتاب الأعلام: "رتبته على الحروف، بحرف الإسم الأول، هم بضم ما يليه إليه، فيكون "آدم" قبل "أمنة" لتقدم الدال الميم، و"أمنة" قبل "إبراهيم"، لألفين في بدء الأول، و"محمد" قبل "محمود" لسبق الدال الواو، و"إبراهيم بن أحمد" قبل "إبراهيم بن أدهم" لتقدم الحاء الدال في إسمي الأبوين وهكذا. أما ما كان مبدوءا بلفظ "أب" أو "أم" أو "ابن" أو "بنت" كأبي بكر، وأم سلمة، وابن أبيه، وابن أبي داؤود، فعددت الأب والأم ونظائرهما لغوا، وجعلت "أبابكر" في حرف الباء مع الكاف وما يتلثهما، و"أم سلمة" في حرف السين مع اللام، و"ابن أبيه" في حرف الألف مع الباء فالياء، واتخذت رسم الحروف أساسا" [10]

رابعًا: موارد الكتاب

إن المصادر والمراجع اللتان أوردهما الزركلي في آخر كتابه "الأعلام" تتمان عن توسع علمه وثقافته، وتبوحان بجهوده المضنية التي بذل الزركلي في إكمال كتابه الهام، لكنه يوجد فيه موردان أيضا لم يذكرهما:

الأول: المشاهدة والملاحظة، ونرى ذلك واضحا في تراجم أقرانه أو الذين عمل معهم، وخير دليل على ذلك ترجمة الملك عبدالعزيز، والملك عبدالله بن الحسين 82/4، ويوسف ياسين 235/8، وسعيد الصباغ 100/3 [11]

والثاني: المشافهة والمساءلة والمراسلة، والأخيرة تشمل الروايات والمعلومات والأخبار التي سمعها أو قام بالسؤال عنها، وأما المشافهة فتناوله من أفواه الشيوخ أو الذين اعتمد على صدقهم وعدم انحيادهم.

المعلومات الخارجية التي استفاد منها الزركلي في كتابه الأعلام: بذل الزركلي كل ما في وسعه من جهود في إنجاز كتابه الأعلام، واستعان على جودة الكتاب والاتقان فيه بأمرين، فضلا عن مصادره ومراجعته المتوافرتان في آخر كتابه:

الأمر الأول: المساعدون، الذين ساعدوه في الكتاب من ناحية المادة والمراجعة على التصحيح والإضافة، ويمكن ترتيبهم على النحو التالي:

(1) المؤازرون، الذين فتحوا له خزائن كتبهم، وهم: محمد كرد علي بدمشق، وأحمد عبيد بدمشق، وأحمد تيمور باشا وأحمد زكي باشا بالقاهرة، وزهير الشاويش ببيروت،

(2) الزائرون: كل من قدم مصر والمغرب، ومت بهم الزركلي صلة الصداقة، وسألهم عن علماء بلدهم أو غيرهم، وخطوطهم، منهم: العلامة عبدالعزيز الميميني (7)

(3) مرحلة مصر: محمد رشاد عبد المطلب، فؤاد سيد، إبراهيم شيوخ، وأمين مرسي قنديل، وعبدالله الجراري.

(4) مرحلة المغرب: محمد المختار السوسي، محمد إبراهيم الكتاني، وعبد الحفيظ الفاسي، وكذلك محمد المدني الحسني.

(5) مرحلة بيروت: زهير الشاويش وحمد الجاسر.

(6) المراسلات والزيارات: وشملت هذه الفئة أحمد عبيد، وحسن حسني عبدالوهاب، ومحمد طاهري عاشور.

(7) استفاد الزركلي كثيرا من تعليقات المعلقين وانتقادات النقاد عند إعادة طبع الكتاب ومنهم: أحمد عبيد، وعبد الله السام، وأحمد خيري، بالإضافة إلى المستشرق "كرنكو" (8)

الأمر الثاني:

تنقل الأستاذ الزركلي بصفته مندوبا وسفيرا وممثلا وقائما بالأعمال في حكومات مختلفة بين الأقطار والعواصم والمدن والمكاتب والمجالس، مما عرفه بالرجال من كل صنف ولون، وسمع الأقباصيص، ورأى الوقائع فلم يجد عرقلة دون حصوله على مصدر أو مرجع.

خامسا: أسلوب الكتاب

ومما يميز الكتاب بين أقرانه هو الأسلوب الجاذب بقلم رشيق، وقد امتدح أهل المعرفة هذا الكتاب الذي خدم العلم والعلماء وأشادوا بأسلوبه الرائع، فأتى الأستاذ بالتراجم باختصار، بعبارة لا تعرف الإبهام والغموض، في قالب محكمة مصنوعة بقلم الأديب المؤرخ الشاعر، ويقف عند النقاط البارزة لحياة المترجم له ليستوفيها استيفاء وافية، وقد زان ذلك كله حسن البيان، وصفاء العبارة الساحر للنفوس، فتتواجد كثير من الدراسات قد جمعت لكنها لم تبلغ مبلغها من النفع والفائدة لجفافها وعسرها، وغموضها.

يقول الأستاذ محمد بن عبد الله الرشيد في مقدمة كتابه الإعلام بتصحيح كتاب الأعلام ص 11:

"فإن كتاب "الأعلام" للعلامة المؤرخ الشاعر الأديب الأستاذ خير الدين الزركلي المولود سنة 1310 هـ والمتوفي سنة 1396 هـ - رحمه الله - كتاب فرض نفسه في المكتبة أيا كان تخصص صاحبها، لما حوى من التراجم الكثيرة على اختلاف طبقات المترجمين ومذاهبهم وبلدانهم وعصورهم، مع التحقيق والاتقان والعزو الكثير لمصدر الترجمة" [12]

المبحث الثاني: ميزات الكتاب وخصائصه وملاحظات نقدية عليه

أولاً: خصائص الكتاب

وفيما يلي خصائص الكتاب في عدة نقاط:

- [1] الدقة البالغة في تحرير الترجمة، وإبراز أهم ملامح العلم المترجم له.
- [2] الاستعانة بالمراجع الحية، من أهل العلم والمنتسبين إلى مذهب المترجم له.
- [3] جلاء الغموض الذي يكتنف بعض الأعلام.
- [4] التنبيه على بعض فوائد العلمية.
- [5] الرجوع في توثيق الترجمة إلى المصادر الحية.
- [6] ذكر نفائس المخطوطات ونوادرها، التي رآها في رحلاته وأسفاره.
- [7] الرعاية بالأسلوب الأدبي البسيط، والبعد عن الغموض والإبهام فيه.
- [8] إيراد معظم تراجمه بإيجاز لكن بمنهج مدقق.
- [9] وما إلى ذلك من محاسن أخرى.

ثانياً: ملاحظات نقدية واعية على الكتاب:

لا يختلف فيه إثنان أن كتاب الأعلام يعد من أمتع كتب التراجم وأغزرها ما فائدة، حيث وضع فيه المؤلف خلاصة علمه ونتائج رحلاته بأسلوب رائع ومنهج مدقق وعبارة جلية، مما أغدق عليه الثناء والتقدير البالغ بين معاصريه، وأكسبه شهرة إلى حد أن أعماله القيمة الأخرى اختفت في ركام النسيان، قضى المؤلف ستين سنة من عمره في جمع مصادر تراجم الأعلام وتحقيقها وتدقيقها وواصل هذا العمل حتى توفي رحمه الله.

"وكان كتاب الأعلام هم الزركلي الدائم، يصحبه في حله وترحاله، عده كتاباً مفتوحاً، فكان لا يزال يجمع له سير الأعلام منتبعا، ويزيد في مادته، ويبحث عن تراجم جديدة حتى لقد مات في المستشفى رحمه الله وتحت وسادته - كما قال أصدقائه - أوراق كان يريد أن يضمها إلى ما تجمع عنده من جديد، ليدخلها من جديد" [13]

بيد أن عمله - كأبي عمل آخر - لا يخلو من مأخذ وهنات وأخطاء، ولا تمنع ميزات الكتاب أهل المعرفة والباحثين والدارسين عن القيام بالتحقيق والتدقيق في محتويات الكتاب، وخير دليل على ذلك أن تتواجد ستة كتب ألفت نقداً أو ذبلاً أو تكملة أو إضافة لكتاب الأعلام (نورد التعريف الموجز لهذه الكتب الستة في المبحث الأخير إنشاء الله).

ففي أثناء الدراسة لكتاب الأعلام، توجد تراجم كثيرة أغدق المدح على أصحابها، كقوله في ترجمة ابن عمارة 6/5 و"كان عاقلاً حسن السيرة"، وكذلك قوله في ترجمة فوزان السابق 162/5 "وكان من التقي والصدق والدعة وحسن التبصر في الأمور والتفهم لها على جانب عظيم" كما توجد فيه أيضاً بعض التراجم التي هدف إليها بالذم والإساءة كقوله في ترجمة حسني الزعيم 329/2 "وكانت في الزعيم شدة، وحدة، يخالطهما استهتار وعيب، وينقصه كثير من عفة اللسان إذا مزح أو سخط".

ومن اللافت أن الزركلي يجمع بين المدح والذم في ترجمة واحدة كقوله في ترجمة ناصر بن فابتابي 9/7 نقلا عن ابن إياس "كان يوصف بالكرم الزراند والشجاعة لكنه كان جاهلاً عسوفاً سفاكاً للدماء، سيئ التدبير، كثيراً العسر للأوباش" [14]

جمع الزركلي في كتابه التراجم من العصر الجاهلي حتى وفاته سنة 1976م، فلم يترجم للأنبياء الذين ذكر إسمهم في القرآن الكريم، ولم يترجم إلا للأنبياء محمد، شعيب، أيوب، هود، واسماعيل، وصالح عليهم السلام.

نرى فيما سبق أعلاه أن الأستاذ الزركلي كان يستعين بالمراجع الحية، ويرجع إلى أهل العلم والمنتسبين إلى مذهب المترجم له، لكنه من الغرو أنه لم يورد تراجم لبعض مشاهير قدماء وعصريين، فمن القدماء: أحمد بن هبة الله المدائني صاحب كتاب أحكام الجدل

والمناظرة، والقاسم بن محمد بن علي الشاشي صاحب التقريب وغيرهم من المشاهير القدماء. ومن العصريين: الدكتور محمد غنيمي هلال وإبراهيم حمروش وغيرهما من الأدباء المعاصرين له.

ومن محاسن كتاب الأعلام أن الأستاذ أتى بالتراجم فيه بالإيجاز، بيد أن هذا الإيجاز يكون مخلا لبعض المشاهير مثل: عطاء بن دينار الهذلي، فيورد ترجمته "عطاء بن دينار الهذلي، مولاهم، المصري: من رجال الحديث، له كتاب في التفسير، يرويه عن سعيد بن جبير، توفي بمصر" [15]

توجد في الأعلام أمثال كثيرة لمثل هذا الإيجاز المخل. يقول الأستاذ محمد بن عبد الله الرشيد في مقدمة كتابه "الإعلام بتصحيح كتاب الأعلام" عن الإيجاز والاختصار في التراجم لبعض المشاهير:

"ولم استدرك عليه في الغالب إلا ما كان في صلب الترجمة، لأن المؤلف له منهج خاص لا يعرفه إلا من عايش كتابه "الأعلام" وسبره، فهو يختصر الترجمة غالبا، فتراه لا يذكر للمترجم كل مؤلفاته، بل قد يختصر في أسمائها أحيانا، وقصده من ذلك الإيجاز والاختصار، كما أنه لا يذكر كل وظائف المترجم ورحلاته" [16]

وعندما نقاب صفحات كتاب الأعلام لآنجد ذكرى أي سلطان من سلاطين الدولة العثمانية، علما أنه ترجم للمماليك والمستشرقين، فمن الممكن أن السبب وراء ذلك التعصب أن خير الدين الزركلي كان رجلا وطنيا، متأثرا بنزعة القومية العربية، وكان سلاطين الدولة العثمانية من الأتراك، الذين تسلطوا عليه بالأذى، وأصدروا الحكم بمصادرة مجلته "الأصمعي" التي أنشأها في دمشق، بسبب صورة رمزية كتب أنها صورة الخليفة العربي "المأمون".

المبحث الثالث: الكتب الستة المتعلقة بالأعلام من ذيول واختصار

تتوافر كتب كثيرة ودراسات ضخمة في مجال الترجمة في عصرنا الحديث إلا أن الأعلام أحرز قصب السبق في المقبولية والشهرة، وذلك بسبب غزارة مادته، وإيجازه البسيط وقالبه المحكمة بالأديب الفذ، المؤرخ واسع الإطلاع، والرجال المجرب، والمحرر المدقق الأستاذ خير الدين الزركلي، وخير دليل على أهمية "الأعلام" ونفعه أن تتألفت ستة كتب ذبلا أو تكملة له، فنأتي التعريف الموجز بهذه الكتب الستة بما يلي:

الأول: "معجم الأعلام" للأستاذ بسام عبد الوهاب الجابي، اختصر فيه كتاب الأعلام اختصارا موجزا جدا حيث يذكر اسم المترجم وسنة مولده ووفاته ونسبته، وصدر الكتاب في (1000) صفحة، 1407 هـ عن دار الجفان والجابي للطباعة والنشر.

الثاني: "ترتيب الأعلام على الأعوام" للأستاذ ظهير ظاظا، وقام باختصار الترجمة بأوسع من سابقه، ورتب الكتاب حسب الوفيات كما أنه يذكر أحيانا بعض الفوائد، وطبع في مجلدين في (1200) صفحة عن دار الأرقام بيروت.

الثالث: "تنمة الأعلام" للأستاذ محمد خير رمضان يوسف، جعله ذبلا على كتاب الأعلام، فترجم فيه لمن توفي من سنة (1397) إلى (1415) وطبع في مجلدين بـ(796) صفحة عن دار ابن حزم بيروت، الطبعة الأولى سنة 1418 هـ.

الرابع: "ذيل الأعلام" للأستاذ أحمد العلوانة، جعله ذبلا على كتاب الأعلام، وطبع في مجلد بـ(368) صفحة عن دار المنارة بجدة، الطبعة الأولى سنة 1418 هـ.

الخامس: "فوات الأعلام مع الاستدراكات والإسهام في إتمام الأعلام" تأليف العالم الأديب الأستاذ عبد العزيز بن أحمد الرفاعي رحمه الله، طبع في مجلد في (131) صفحة بدار الرفاعي للنشر والتوزيع بالرياض، الطبعة الأولى 1420م، وهذا الكتاب قد جعله مؤلفه على ثلاثة أقسام كما ذكر في العنوان، ويظهر للباحث أول وهلة بالإطلاع على هذا الكتاب أن المؤلف كان لديه مشروع كبير حول "الأعلام" ولكن المنية وافته فلم يتم العمل [17]

السادس: "إتمام الأعلام" (ذيل لكتاب الأعلام) للشيخ محمد رياض المالح دمشقي، والأستاذ نزار أباطه، طبع في مجلد في (336) صفحة، بدار صادر بيروت، الطبعة الأولى سنة 1999م، وهذا الكتاب يعتبر الوسط بين الذبيل الثلاثة، فلم يكن حاويا على تراجم كثيرة وتراجم مطولة ككتاب "تنمة الأعلام" للأستاذ محمد خير رمضان يوسف⁽⁹⁾، ولم يكن مختصرا ككتاب "ذيل الأعلام" للأستاذ أحمد العلوانة⁽¹⁰⁾

"كان هذا الكتاب (إتمام الأعلام) على وشك الصدور، لم يبق له سوى أيام معدودات كي يخرج إلى النور حينما فوجئنا في السوق بكتابين من مثله، كلاهما يريد أن يذيل على كتاب (الأعلام) لخير الدين الزركلي رحمه الله، أما أحدهما فأعده الأستاذ أحمد العلوانة في مجلد واحد، وسماه (ذيل الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، وأما الآخر فجاء في مجلدين، أصدرهما الأستاذ محمد خير رمضان يوسف تحت عنوان "تنمة الأعلام".....، وتبين لنا بعد استعراضهما واستعراض كتابنا الذي يثلهما أن في كل منها أشياء تفرد بها عن مثيليه الآخرين، وزيادات ليست بهما، جاءت على نحو ما" [18]

خلاصة المقال:

يعد كتاب "الأعلام" من أهم انتاجات المؤرخ السوري الأستاذ خير الدين الزركلي عليه الرحمة، الذي صنفه بعد تجربة علمية أدبية وخبرات واسعة في عدة حقول من العلم، والأدب، والشعر، والترجمة، والتاريخ، والسير، وما إلى ذلك من العلوم والفنون الأخرى، في تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين بدون تفريق مذاهبهم، وعقائدهم، وفرقهم، وسياساتهم في أسلوب رائع سلسل. يعتبر هذا الكتاب من أنفس كتب التراجم، وأكثرها نفعاً وأعظمها تأثيراً في قلوب القراء، والدارسين، الباحثين ممن يريدون الإلمام بتاريخ تراجم لأشهر الرجال والنساء، وفي الواقع أن الكتاب بمثابة موسوعة علمية ثقافية تاريخية تحتوي على

نحو خمسة عشر ألف ترجمة، أفاد من عمله في السلك الخارجي سكرتيراً، ثم سفيراً ومندوباً في بلاد عربية مختلفة. وقام بزيارات إلى دول أجنبية، ووقف على كثير من خزائن الكتب العربية فيها، ف جاء الكتاب موسوعة علمية نادرة، وثمره يانعة من تجاربه المتواصلة وثقافته الواسعة، ومزيجاً من أسلوب الأديب الشاعر، وتدقيق المؤرخ واسع الإطلاع على النواذر والمخطوطات، وحسن إيجاز الصحافي الكبير و بيانه، مما يثير رغبة القارئ في قراءته ومطالعته لشعوره تلذذاً في نفسه. فالكتاب في المعنى الحقيقي مرجع هام، وتحفة تاريخية ثمينة للباحثين والدارسين وأهل المعرفة، وثررة هائلة لاتقدر قيمتها في مجال السير والتراجم في الأدب العربي. أمل أن هذا المقال المتواضع سينال القبول والإعجاب بين الأوساط العلمية والفكرية والأدبية الأكاديمية بإذن الله تعالى. وسيكون إضافة في باب التراجم والسير في الأدب العربي.

* الباحث في الدكتوراه، جامعة مانو (جامعة مولانا آزاد الوطنية الأردنية) حيدرآباد، الهند.

الهوامش:

- (1) قام د/ أحمد درويش بترجمة "فن الترجمة والسير الذاتية" وتقديمه وتعليقه من كتاب DELA BIOGRAPHIE في الفرنسية للكاتب الفرنسي أندريه موروا. وهذا الكتاب ست محاضرات ألقيت بكلية تريتني بكمبردج في شهرمايو سنة 1928م. (درويش، أحمد، فن التراجم والسير الذاتية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، الطبعة الأولى 10 أغسطس 1998م، ص30).
- (2) الزركلي، خير الدين، كاتب ومؤرخ وشاعر، ولد ببيروت ونشأ بدمشق، وأصدر مجلة الأصمعي، من أهم مصنفاته "الأعلام" عشرة مجلدات (1927 – 1959) (هيلات، عبد الله خليل، الموسوعة الأدبية العالمية، المركز القومي للإصدارات القانونية، القاهرة – مصر، الطبعة الأولى 2011م، ص394).
- (3) الشيخ العلامة المحقق محمد رياض المالح، ولد رحمه الله تعالى 1939م في العاصمة السورية دمشق، من مؤلفاته: أبو الخير الميداني، ذيل لكتاب الأعلام كتبه بالإشتراك مع الأستاذ نزار أباطة، توفي 11 يوليو 1998م (قرطام، أحمد بن منصور، ترجمة فضيلة الشيخ العلامة محمد رياض المالح رحمه الله، إصدارات آل البيت لإحياء التراث والعلوم – فلسطين، لاتوجد معلومات أخرى).
- (4) من تراجم مشاهير المستشرقين في الأعلام: مارتن هارتمن 1851 – 1919م (Marin Hartmann)، مستشرق ألماني. مارسيل دوفيك – 1886م (Marcel Devic) مستشرق فرنسي، نشر بالعربية "عجائب الهند" مع ترجمته بالفرنسية. مارتن تيودور هوتسما 1851 – 1943م (Martin Theodor Houtsma)، مستشرق هولندي، وهومن أوائل اضطلعوا بإنشاء (دائرة المعارف الإسلامية) سنة 1906م، وغيرهم من المستشرقين المشهورين (الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، المجلد الخامس، الطبعة الخامسة عشرة، أيار/ مايو 2002م، ص252).
- (5) من تراجم أشهر المستعربين في الأعلام: أبو الفرج ابن العري (1226 – 1286م)، مؤرخ سرياني مستعرب، له 35 مصنفاً في علوم مختلفة، ومنها بالعربية "تاريخ الدول"، وكان بصيراً بالأرمنية، ماهراً في الفارسية واليونانية والسريانية والفارسية. وغيره من العلماء المستعربين. نفس المصدر ص115.
- (6) وفي ترجمة الإمام مالك يقول الأستاذ الزركلي: الإمام مالك (712 – 795م) مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري، أبو عبد الله، وأحد الإئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه تنسب المالكية وله رسالة في "الرد على القدرية") نفس المصدر ص257.
- (7) هو عبد العزيز بن عبد الكريم بن يعقوب الميمني الراجكوتي ولد عام 1815م وتوفي عام 1900م، ومن تحقيقاته البارزة: الطرائف الأدبية، وسمط اللالي في شرح أمالي القاضي أبي عبيد البركري، ورسالة المائكة أبي المعري وما إلى ذلك. (الميمني، عبد العزيز، بحوث وتحقيقات، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1995م، ص17).
- (8) فريتس كرنكو، 1872 – 1953م (Fritz Krenkow)، مستشرق ألماني من أعضاء المجمع العلمي العربي (الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، المجلد الخامس، الطبعة الخامسة عشرة، أيار/ مايو 2002م، ص144).
- (9) محمد خير بن رمضان بن إسماعيل يوسف، كاتب ومؤرخ سوري له عدة مؤلفات وتصانيف في فنون عدة من مؤلفاته: تكملة معجم المؤلفين، تنمة الأعلام (المكتبة الشاملة) لاتوجد معلومات أخرى، <https://shamela.ws/index.php/author/2428>
- (10) أحمد إبراهيم العلاونة، مؤرخ أردني، ولد في الطيبة من محافظة إربد بالأردن سنة 1966م، من مؤلفاته: فهارس ذكريات على الطنطاوي، ذيل الأعلام، نظرات في كتاب الأعلام. (الجمال، أبو الحسن، حوار مع المؤرخ أحمد العلاونة "ذهبي العصر". الموقع: رابطة ادباء الشام، كانون 2015/01م.

المصادر والمراجع:

- [1] درويش، أحمد، فن التراجم والسير الذاتية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، الطبعة الأولى 10 أغسطس 1998م، ص05.
- [2] أباطة، نزار، المالح، محمد رياض، إتمام الأعلام (ذيل لكتاب الأعلام لخير الدين الزركلي) دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى 1999م، ص05.
- [3] الرشيد، محمد بن عبد الله، الأعلام بتصحيح كتاب الأعلام، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض السعودية، الطبعة الأولى 2001م، ص13.
- [4] الزركلي، خير الدين، مقدمة الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، المجلد الأول، الطبعة السابعة، أيار (مايو) 1986م، ص19.
- [5] الزركلي، خير الدين، مقدمة الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، المجلد الأول، الطبعة السابعة، أيار (مايو) 1986م، ص20.
- [6] هيلات، عبد الله خليل، الموسوعة الأدبية العالمية، المركز القومي للإصدارات القانونية، القاهرة – مصر، الطبعة الأولى 2011م، ص394.

- [7] الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، المجلدات والصفحات المختلفة 165/3، 201/8، 306/1، 188/3 على التوالي، الطبعة الخامسة عشر أيار/ مايو 2002م.
- [8] الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، المجلدات المختلفة والصفحات المختلفة 203-202/6، 93-92/7، 54/6، 21-19/4، 50-24/2 على التوالي، الطبعة الخامسة عشرة، أيار/ مايو 2002م.
- [9] العلاونة، أحمد، ذيل الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة السعودية، الطبعة الأولى 1998م، ص13.
- [10] الزركلي، خير الدين، مقدمة الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، المجلد الأول، الطبعة الأولى، أيار (مايو) 1986م، ص20.
- [11] الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، المجلد الرابع، والثامن والثالث، الطبعة الأولى، أيار (مايو) 1986م، ص82، 235، 100 على التوالي.
- [12] الرشيد، محمد بن عبد الله، الإعلام بتصحيح كتاب الأعلام، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض – السعودية، الطبعة الأولى 2001م، ص11.
- [13] أباطة، نزار، المالح، محمد رياض، إتمام الأعلام (ذيل لكتاب الأعلام لخير الدين الزركلي) دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى 1999م، ص06.
- [14] الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، المجلد الخامس، والثاني والسابع، الطبعة الأولى، أيار (مايو) 1986م، ص6، 329، 9 على التوالي.
- [15] الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، المجلد الرابع، الطبعة الأولى، أيار (مايو) 1986م، ص235.
- [16] الرشيد، محمد بن عبد الله، الأعلام بتصحيح كتاب الأعلام، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض السعودية، الطبعة الأولى 2001م، ص11.
- [17] الرشيد، محمد بن عبد الله، الأعلام بتصحيح كتاب الأعلام، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض السعودية، الطبعة الأولى 2001م، ص18.
- [18] أباطة، نزار، المالح، محمد رياض، إتمام الأعلام (ذيل لكتاب الأعلام لخير الدين الزركلي) دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى 1999م، ص08.